فن المراجعة

والتعقيب

— ٢ —

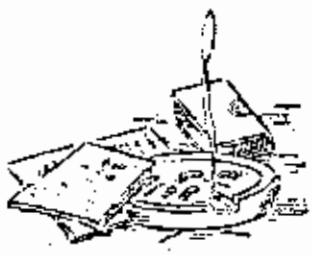

للأستاذ مصطفى عبد اللطيف السحرتي

وسواء أسارت مراجعة الكاتب على طريقة من هذه الطرق ، أم لم تسر ، فمن الواجب على الكاتب مراعاة قواعد الصناعة الفنية للمراجعة ، واحترام آدابها . وقد سجلناها في صدر هذا المقال[1] ، وعلى رأسها الابتداء ببؤرة الشوق ، أو وتد الشوق ، أو كما يقول أحد عمداء الصحافة الأمريكية الأستاذ ـ جرانت هايد ـ وذلك بالابتداء بالذروة Climax ووضع خلاصة منظمة منطقية لمحتويات الكتاب لبيان هدفه ورسالته .

ونظرة فاحصة إلى مراجعات كتّابنا ، تكشف عن مدى تخلي أغلبها عن الكياسة ، أو وهن مستواها وجهالتها ، أو هوائيتها وتحاملها وعدوانها الآثم على الكتاب والكاتب . فمنهم من يراجع أو يعقب مراجعة سطحية مضطربة تسير سير النقاط في حركاته الطائشة ولا يخرج منها القارىء بثمرة وهذا ما تنفثه أقلام الشادين في الأدب ، وهناك من يعقب تعقيباً رناناً ، طناناً ، كطنين الزنبور ، فيثير في الجو ضجة ، وفي الأعصاب توتراً ورجة . وهذا ما يجري عليه المتقولون المتفاصحون . وهناك من يضطر لجمع ما في التأليف من رحيق ، ويعز عليه أن يتركه دون لدغة . وهناك من يرجو بمراجعته التقرب إلى أحد كبار المؤلفين ، فيملأ كتابته مدحاً وتقريظاً ، ويقف أمام كتابه الجديد ، كدود الأرض الوضيع . وهناك من يتخذ من التعقيب أداة للتشهير ، وتلطيخ سمعة الكتاب وكاتبه ،

(١) راجع «ثقافة» سبتمبر سنة ١٩٥١

وهذا هو التعقيب العقري السام الذي يكشف في اتقان عن تمركاتبه وأشراقاته السيكولوجية ، ويؤدي دائماً إلى تحقيره والزراية عليه .

فهذه التعقيبات السطحية منها ، والمتفاصحة ، والمدلسة أو المتحمسة ، شواهد على وهن مستوى الذوق والمعرفة لدى بعض المعقبين ، أو على الجرح ، والانحراف ، وروح النقمة لدى البعض الآخر ، وهي تعقيبات تثمر ثمرة عكسية ، إذ تتحول حكماً قاسياً على المعقب ، وعلى عقله وخلقه ، وأدبه ، ولن تؤثر في المؤلف تأثيراً يذكر .

فلقد قرأنا تعقيباً ، على كتاب « البلاغة المصرية » للاستاذ سلامه موسى ، ينم على الجهالة والتعصب المذهبي ، وطالعنا تعقيبات في العام الماضي بمجلة الرسالة لشاب جامعي مليئة بالتعالم والغرور وتنم على النرجسية ، وعجبنا من تعقيب على كتاب « مذكرات » للاستاذ الكبير كردعلي زاخر بالنقمة منه على صراحته ، وقرأنا في مجلة الكتاب بعض تعقيبات مطبوعة بطابع النفاق والتمدح بمؤلفات بعض كبار الأصدقاء ، وزعجنا من تعقيب في مجلة المقتطف على ديوان لأحد شعراء الحجاز ، رعي العيوب ولم يذكر للشاعر حسنة .

ولا نود أن نذكر في هذا المقام أسماء هؤلاء الكتاب ، ولا أن نعدد أمثلة لهذه المهازل التي ترجع أصولها إلى أزمة الخلق وضيق الأفق من ناحية ، وإلى تهاون المحرر المسئول في الصحف والمجلات في المسئولية الأدبية الخطيرة الملقاة على عاتقه ، وعدم اكتراثه بهدي الحرية القلمية .

ومثل هذا التهاون بريئة منه المجلات والصحف الغربية الراقية ، لأن المحرر الأدبي يوزع الكتب الجديدة على المعقبين بحسب مقدراتهم وفهمهم لموضوعات هذه الكتب ، ولا يترك المعقب يقول كما يهوى ، بل تحتفظ المجلة أو الصحيفة بحرية مناقشة هذه التعقيبات ، وفي هذه الطريقة المثلى انصاف للمعقب وللمؤلف وللقراء ، واحترام للمجلة والثقة بها .

ويقتضينا الانصاف أن نسجل أن البيئة الفكرية في مصر ، أثمرت بطائفة من التعقيبات الواعية الذكية لبعض الكتاب النابهين ، ونذكر منهم : الدكتور أحمد زكي أبو شادي ، والأساتذة علي أدهم ، وشوقي ضيف ، والصيرفي ، والدكتور يوسف كرم ، والدكتور يوسف مراد ، والدكتور زيور ، والدكتور الأهواني ، والدكتورة عائشة عبد الرحمن ، والأساتذة عادل الغضبان ، وعبد الغني حسن ، ووديع فلسطين ، ومفيد الشوباشي ، ومحمد فهمي ، ورضوان ابراهيم وغيرهم من الكتاب

وتتفاوت تعقيبات هؤلاء بتفاوت ثقافتهم ، ورهافة مشاعرهم ، واتجاهاتهم الفنية ، ومقدراتهم الخاصة .

ويستحسن هنا في هذا المقال الوجيز أن نبين مدى كفاية تعقيبات هؤلاء الكتّاب أو غيرهم ، إلا أننا نعرض بعض التعقيبات عليهم ، ويمكن للقارىء الحكم على هذا كله ، على ضوء ما قدمنا من توجيهات وآراء . ولن يمنعنا هذا من الاشارة العابرة إلى ما قرأناه مؤخراً من تعقيب للدكتور يوسف كرم في مجلة الكتاب لكتاب « فلسفة المعتزلة »[1] فقد كان تعقيباً ومنيناً ذكيًّا ضمّ نسيجه خيوطاً ملتحمة من المذاهب النقدية الثلاثة التي أسلفنا ذكرها ، فقدم له بمقدمة شائقة ، وأبان جهد المؤلف في بحثه وذكر أهم آرائه ، وأعطى صورة عامة صادقة تفتح العيون إلى قيم الكتاب وفضائله في وحدة أسلوبية محكمة .

وما قرأناه في عدد أكتوبر عام ١٩٥٠ في المجلة ذاتها من تعقيب للدكتور شوقي ضيف على ديوان « نبع الحياة »[2] فقد كان تعقيبـاً صريحاً ذكيًّا لشعر الديوان بوجه عام ، وقد غلف ما وجهه إلى مؤلفه من نقدات في وشاح مهذب مؤدب ، ولو كان المعقب حدثنا عن بعض قصائده وأتى بنموذج منها ، لكان تعقيبه متكاملاً ، ولأعطى القارىء مادة للحكم بنفسه على الديوان .

وطالعنا في مجلة علم النفس تعقيباً طيباً للكاتبة الفاضلة فاطمة موسى لكتاب الأستاذ محمد خلف الله : « من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده »[3] نوهت في فاتحته بفقر المكتبة العربية من مثل هـذه البحوث ، وأبانت الصلة الوثيقة بين الأدب وعلم النفس ، واستشهدت بنبذة من الكتاب في توضيح هـذه الصلة ، ثم تناولت الكتاب باباً باباً على الطريقة الكلاسيكية التي شرحناها آنفاً ، وقد فاتها إبراز أهم آراء المؤلف ، لاعطاء فكرة واضحة عن هـذا المؤلف النفيس ، واضافة أكثر من نبذة من الكتاب لتبين هذه الآراء .

ووقعنا في مجلة « الأديب المصري »[4] على تعقيب للقاص الشاب أحمد عباس صالح عن رواية « النقاب » للأستاذ عبد الحميد جودة السحار ، تحدث فيه عن أثر البيئة في

(١) مجلة الكتاب — فبراير ١٩٥١ فلسفة المعتزلة — تأليف الدكتور ألبير نصري نادر
(٢) ديوان « نبع الحياة » للاستاذ محمد عبد الغني حسن .
(٣) مجلة علم النفس مجلد ٥ — أكتوبر ١٩٤٩ — يناير ١٩٥٠
(٤) مجلة الأديب المصري — يونيو ١٩٥٠

المؤلف ، واقتصاره على الاعراب عن أفكار الطبقة المتوسطة في مصر ، وميل هذه الطبقة إلى ... عن تقاليدها الموروثة ، وهو بهذا يضرب مثالاً للاتجاه الواقعي في التعقيب ، ... لم يفته ذكر هنات فنية في الرواية ، وقد فات المعقب أن يسير على طريقة فنية في تعقيبه .

ويبدو من هذه الالمامة القصيرة ، كيف تتفاوت التعقيبات على الكتب الجديدة في تكاملها أو قصورها ، وفي قوتها أو كلالها ، وفي ميلها إلى مذهب بعينه ، أو سيرها مستقلة أصيلة .

ومع اتسام كثير من التعقيبات في مصر بالامتياز والنزاهة واللطف ، فان طائفة منها يرنقها التزمت ، والانحراف ، والتطرف ، أو تعوزها العناصر الفنية .

فبعض التعقيبات الكلاسيكية للكتب القيمة تحاول أن تعيبها بذكر هنات لغوية أو نحوية ، أو أخطاء مطبعية ، دون اهتمام بذكر ما وعت من آراء وأفكار جديدة بالتقدير ، وهذا هو التعقيب الفقهي ، وهو أشبه ما يكون بفارغ البندق ، الذي يتعب الأنياب في كسره دون ثمرة . ومن مثال هذا ما قرأناه للاستاذ سيد صقر تعقيباً على كتاب « غوطة دمشق »[1] إذ سرد المعقب أبواب الكتاب سرداً وأعقب ذلك بهفوة لغوية ، وغلطة جغرافية على زعمه وختم العرض بالثناء المستطاب على المؤلف ، ووصف الفصل الأخير بأنه بلغ ذروة الكمال والجمال .

ويدخل في باب التعقيبات الفقهية تلك التعقيبات الملونة المزركشة الزاخرة بالأصباغ التي تنادي القارىء إلى جمالها المجلوب ، ولا تهيب به إلى قراءة الكتاب المعروض ، وهذا ما نقع عليه في مثل كتابات الاستاذ كامل عجلان

وتوغل بعض التعقيبات الرومانتكية في الذاتية ، فيهوم المعقب في دنياه ، ويحوم بالقارىء حول سحابة دكناء ، لا يرى من ورائها سماء ولا ضياء ، ويظهر الكتاب الجديد في لحد مظلم كئيب ، وتجري بهذه التعقيبات أقلام بعض الشعراء العائشين في الأبراج ، وهؤلاء قلائل بل نوادر في مصر .

ويدخل في باب هذه التعقيبات الذاتية ، تلك التعقيبات المتأثرة بالاعتبارات الوجدانية ، إذ يعمل المعقب على التهوين من كتب قيمة لخلاف مع المؤلف في الرأي ، أو المذهب ، أو وجود تنافر شخصي بينهما ، وهذا ما نلمسه في بعض تعقيبات الاستاذين

(١) مجلة الثقافة

سيد قطب ، والعوضي الوكيل .

ونعرف بعض التعقيبات الواقعية في الجوامع ، وتنظر إلى كل تأليف فني نظرة استخفاف وتهوين ، وبتجاهل كاتبو هذه التعقيبات تباين طاقات المؤلفين وتنوع تجاربهم ، وآثار الصنيع الفني الذي لا يساير وجهة نظرهم ، في أوصاف المشاعر ، وتهذيب الوجدان ، ومن بين هؤلاء الغلاة نذكر الأستاذين مفيد الشوباشي ونجيب عزب وغيرهما .

وكثير من التعقيبات التي وقفنا عليها ، سواء أسارت على مذهب أو لم تسر ، لا تعتمد طريقة الكتابة الفنية ، وإنما هي تعقيبات يجري فيها المعقبون كيفما يتفق ، فالفكرة الجوهرية ضاحية مختفية ، في زاوية من زوايا التعقيب ، والمادة مضطربة مختلطة ، وفقرات التعقيب متشابكة ، لا تقوم كل فقرة بفكرة ، وهدف المؤلف ونسي حين إن كشف عنه المعقب ، والبداية لا نكهة فيها ، والنهاية مائعة ، فاترة .

والذي يثير الشجي حقًا ، تعرض كثير من المعقبين لألوان من الفن لا يمارسونها ، فمعقب على الشعر ، لم يهذب ذوقه ، ومعقب على القصة ، لم يعرف لها أصولا ، ومعقب على الدرامة ، لم يتقن فيها ، فلا جرم إذا شاهدت أغلب التعقيبات وعجزت عن إنصاف المؤلفين ، وخدمة التأليف ، والحركة الفكرية في مصر .

❖

ومع هذا ، فما زلنا نحي الأمل في ازدهار فن المراجعة والتعقيب في هذه البلاد ، إذا قدّر الكاتبون مهمتهم نحو المؤلفات الجديدة ، وأدى المحررون الأدبيون واجبهم . ومهمة الكاتبين تنحصر كما أسلفنا في ثنايا هذا المقال ، في قراءة المؤلفات الجديدة قراءة عميقة ، وتقديم خلاصة مركزة للقارىء المشوق ، والإعراب عن آرائهم في شرف ونزاهة وشجاعة مقرونة بالأدب والكياسة .

أما واجب المحررين الأدبيين فيقوم على العناية بالمؤلفات الجديدة التي تخرجها المطبعة سواء أحديت الصحيفة والمجلة أم لم تهد أليها ، والاهتمام بالكتب القيمة منها ، وتوسيع صدرها لأقلام الكتاب الممتازين في بيان محاسنها أو هناتها ، دون النظر إلى شهرة المؤلف ، ومركزه الاجتماعي . فقد أصبح اليوم في عنق هؤلاء المحررين إبراز الموهوبين من الكتاب الناشئين ، كما أصبح في ذمة المراجعين والمعقبين ، تزويد القارىء بلباب المؤلفات ، وإنصاف الأعمال القيمة ، ونصرة المؤلفين الناضجين الساعين في تقدم وإبداع .